وحياته ، وإذا هو عميق فى مصريته إلى المكان الذى يجب أن يكون عنده المصرى العربى الشعبى

والذى قرأ تيمور فى قصته الطويلة « الاطلال » أو فى قصصه القصيرة التى أخرجها قبل ذلك كتباً ، يلمس فيه ميلاً إلى هذا الفن شديداً ، ويؤمل منه بعد ذلك انقطاعاً للقصة وإيثاراً لها على كل شىء ، حتى يسد بذلك فراغاً يجب ألا يترك شاغراً ، أو يباح هباء للعابثين المسيئين إلى القصة وتاريخها شر الاساءة ..

وكان فريد أبو حديد مصرياً كذلك دائماً ، حين أخرج لنا « ابنة المملوك » و« مذكرات المرحوم محمد » ثم عميقاً فى مصريته أيضاً . ويبدو أن دراسته التاريخية الطويلة ، قد انحرفت به إلى القصة التاريخية فعشقها عشقاً عظيماً ، ولم يرض أن يحيد عنها إلى غيرها من جوانب فن القصة

وإذا كانت دراسة التاريخ قد غمرت نتاجه وأفرغت عليه من لونها فيضاً ، فليس ذلك هو الشىء الذى يتميز به أبو حديد أو يتفرد ، وإنما الذى يتميز به على القصصيين المصريين جميعاً هو الخيال الخصب الذى لا يحد ، والقدرة الفائقة على تصوير الحياة فى غابر العصور أو حاضرها أو مستقبلها

وهذا الخيال ، وهذه الطبيعة ، وهذه الدراسة ، كانت قادرة على أن تجعل من أبى حديد عوناً للقصة المصرية شديداً ، ومناصراً قوياً ، وفارساً مبرزاً ، لو أقبل يدخل الميدان ويوغل فى ثناياه .. وهو القدير على ذلك أى قدرة ..

ولقد كان لنا أن نضع الدكتور طه حسين بك فى عداد القصصيين النابغين ، حين نقرأ له كتابه « الأيام » الذى بلغ به شأوا من الكمال عظيما ، والذى استطاع أن يفرغ فى سطوره فناً عريقاً ومقدرة فائقة تطالع القارئ فتأخذ عليه حسه .. غير أن الدكتور — فيما عدا الأيام — لا يستطيع أن يكون قصصياً .. ولو أراد الله ووهب الدكتور نعمة الأبصار ، لكسب فن القصة فيه خير نصير وأحسن عون ، ولكان لمصر والشرق العربى أن ينتظرا منه خيراً كثيراً ، لأنه — على حالته تلك — كان يحس إحساس المبصرين ، ويدرك ما يجول بخواطرهم ، أو ما يفمر كيانهم من عوامل نفسية يدفعها إليهم الوسط الذى يحيط بهم — بكل ما فيه

(البقية فى العدد القادم)

كامل أحمد مثنا
بسكرتيرية مجلس الشيوخ

٥ ـ دانتى أليجييرى

والكوميديا الإلهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

الجزء السادس من الإنيد (ÆNEID VI)

ذكرنا فى الكلمة الأولى أن دانتى فى كوميدياه كان مقلداً لسلفه الشاعر الرومانى العظيم فرجيل ، وأنه كان يحفظ الجزء السادس من ملحمة الأنيد عن ظهر قلب ، وأنه احتذى فى قصيدته مثال فرجيل ، والآن نعطى القارىء ملخصاً سريعاً لهذا الجزء السادس ليرى أننا لم نكن مغالين حين جزمنا أنه لم يقلد أبا العلاء ولا أسطورة المعراج التى سنعرض لها فى كلمة مستقلة

بيد أننا نرى أن إعطاء القارىء ملخصاً موجزاً للجزء السادس من الأنييد دون أن نعرض للأجزاء الخمسة السابقة سيشوه هذا الملخص ويجعله مبتوراً ، وقد يذهب بجمال الأنييد التى تعتبر أطيب طرفة فى الأدب اللاتينى كله ، لذلك آثرنا أن نعرض للأجزاء الخمسة الأولى فى كلمة خاطفة نخلص منها إلى الجزء السادس إتماماً للفائدة

سقطت طروادة ، وأضرم الأغريق النيران فيها وروّع الأهلون ولاذوا بالبرارى والقفار المحيطة بمدينتهم ، وذهب البطل إينياس Aeneas يبحث عن أبيه وزوجه وولده ليفر بهم من هذا البلد ، ولينجو بعزه التالد ومجده المؤثل من ذل الأسار ، ولكن أباه كان رجلاً شيخاً خائر القوة ، فاحتمله إينياس وانطلق يعدو به فى شوارع المدينة المتأججة ، حتى إذا وصل إلى شاطىء الهلسبنت (الدردنيل) افتقد زوجه فلم يجدها ، ووجد عنده طرواديين كثيرين يعتزمون الهرب من وجوه الهيلانيين فجعلوه رئيسهم وعملوا فى بناء أسطول ضخم أبحروا فيه إلى تراقيا حيث نزلوا إلى البر وأخذوا فى تأسيس طروادة جديدة بدل طروادة الآسيوية ، لولا أن أوحى إليهم[1] أن هذه أرض ملعونة ، فركبوا فى سفنهم وأبحروا إلى جزيرة ديلوس حيث سمعوا صوت أبوللو يأمرهم (أن يهجروا الجزيرة ويبحثوا عن أرض أمهم الأولى حيث

(١) تركنا هنا أسطورة پوليدور الذى قتله أخيل فى حروب طروادة وذلك لضيق المقام

يعيش شعب إينياس ويحكم وتدين له كل الأمم)، ولشد ما طرب الطرواديون لهذا النبأ وأبحروا إلى كريد (إقريطش) كما خمّن لهم والد إينياس، ولكنهم لم يجدوا ثمة خيراً بل كانت محصولاتهم تصفر وتتلف وأصيبوا بسنين عجاف. ثم رأى إينياس في منامه من يأمره بالهجرة من الجزيرة والابحار غرباً إلى أرض إسبريا Hesperia التي هي إيطاليا الحديثة حيث ولد مؤسس طروادة (داردانوس) وقد نزلوا في طريقهم في جزيرة السعالى[1] ثم أبحروا منها إلى أرض إبيروس حيث وجدوا أندروماك زوجة هكتور بطل طروادة تحكم المملكة وقد تزوجت أحد الأسرى الطرواديين (هلينوس) فحلوا عندها أهلاً ونزلوا في ضيافتها سهلاً وزودتهم بهدايا قيمة وأبحروا إلى جزيرة صقلية حيث مروا بمملكة السيكلوب[2] ثم اقتحموا عقبات جمة وصعاباً كثيرة[3] حتى وصلوا إلى قرطاجنة على الساحل الافريقي حيث وجدوا الملكة (ديدو Dido) تؤسس هذه المدينة الخالدة التي ستكون أقوى خصم ومنافس لرومة في المستقبل. وقد أكرمت ديدو مثوى المهاجرين وتزوجت من إينياس وجعلته ملكاً للمملكة غير متوج[4]. وكاد إينياس ينسى ما سخرته له السماء لولا أن أرسل إليه جوبيتر (زيوس) ولده ميركيوري (هرمز) يأمره بالرحلة

وبعد مجازفات هائلة وصلوا إلى شطئان إسبريا (ميناء سيكانيا) حيث مات والد إينياس وحيث سخرت جونو (حيرا) كبيرة الآلهة على أسطوله من أحرقه. وقد حزن البطل على سفائنه غاية الحزن حتى إنه ما فتئ يصلي للسماء أن تدركه فاستجابت دعاءه وأرسلت سيبا من المطر فأطفأ النيران، ورأى إينياس في المنام أباه يأمره أن يجول جولة في إسبريا ليلتقي (السيبيل Sibyl) لتقوده إلى الدار الآخرة لأنه يريد أن يكلمه، وهنا يبدأ الجزء السادس من الأنييد

جولة في العالم الثاني

وذهب إينياس إلى (كيوميه) حيث لقي النبية المباركة (سيبيل) خابتةً متخشعة في كهفها السحيق وسط غاب الخلنج والشاهبلوط. وقبل أن يتكلم نهضت إليه وكلمته بكلام فعرف أنها تعلم ما جاء من أجله وأوصته بالصبر والتجلد، ثم ذكرت له أن لا بد، قبل الهبوط إلى العالم الثاني، من أن يذهب في تلك الغابة اللفّاء المشتجرة، فيبحث في أيكها العظيم وروحها النامي عن (الغصن الذهبي) الذي لا بد من حمله هدية لبروزربين (برسفونيه) زوجة بلوتو إلهة الدار الآخرة

ووصفت له النبية الطريق الذي ينبغي أن يسلك، ثم أرسلت اليه أمه فينوس حمامتين تطيران أمامه تدلانه في غياهب الغابة، فما لبث يتبعهما حتى حطتا على الشجرة التي تحمل الغصن الذهبي فتسلقها واقتطعه وعاد به إلى سيبيل. ونهضت النبية، وقادته إلى كهف منشق وسط الغابة فوق حَيْدٍ وعر من أحياد فزوف (البركان المشهور) حيث أمرته أن يقدم قرابينه إلى الآلهة بلوتو وبروزربين وهيكاتيه وسائر أرباب هيدز. فلما فعل، ارتفعت صيحات عظيمة من أغوار الكهف، ثم نظر فرأى البركان يميد ويزلزل ويكاد يغوص بمن فيه في جوف الأرض، ثم يسمع عواءً ونُباحاً وَوَهْوَهَة فيتلفت فيرى ذؤباناً وكلاباً تهمهم في جنبات الكهف، جائية من الظلمة التي تتدجى في آخره، معلنة قدوم أرباب هيدز. وتوصيه سيبيل بالصبر! وينطلقان حتى إذا كانا لدى وصيد (عَتَبَة) باب جهنم نظرا فرأيا أشباحاً بربرية مظلمة مربدة الوجوه يسأل عنها إينياس ما هي فتجيبه سيبيل إنها الأحزان والهموم والأوصاب والشيخوخة والخوف والجوع والعناء والفقر والموت... وسائر ما في الحياة الدنيا من آلام... وقد أقامت عندها ربات الذعر Furies فهي تتقلب على فراش خشن من فراش الجحيم ويرى بينها (دسكورديا) ربة الخصام وفوق رأسها — مكان الشعر — حيات وأفاع تتحوى وتنفث سمومها، ويرى أيضاً طائفة مروعة من الوحوش والضواري والتنانين مثل هيدرا وبرياريوس، فيزعج إينياس ويعتشق سيفه ليحمي نفسه، ولكن سيبيل تنهاه وتطمئنه فيلمم أذياله ويقتفي أثرها حتى يكونا عند نهر كوكيتوس المتكون من دموع المعذبين. وهنا يريان (خارون) في زورقه الجبار ينقل أرواح الموتى، كثيرة كأوراق الخريف من عُدوة الى عدوة، والأرواح تتدافع تريد أن تسبق، ولكن خارون ينتخب منها الطائفة بعد الأخرى ويدع الآخرين، فيسأل إينياس فتجيبه سيبيل أن الأرواح التي أديت لها شعائر الدفن الجنائزية هي وحدها التي تعبر النهر. أما التي حرمت فتهيم فوق الشاطئ دون أن تعبر مدى مائة عام أو تزيد

(١) Harpies ويروى ڤرجيل هنا أسطورة جميلة نأسف لعدم تلخيصها
(٢) لخصنا هذه الأسطوره في السنة الثالثة من الرسالة
(٣) أغفلنا هنا أسطورة قيمة عن نضال بين حيرا (جونو) ونبتيون
(٤) من أروع فصول الأنييد انتحار ديدو بعد سفر اينياس

حتى يأتيها الفرج (!) . ويجزع إينياس حين يرى فى هؤلاء كثيرين من أصحابه الذين ذهبوا ضحية العاصفة فكانوا من المغرقين ؛ ويشتد حزنه حين يرى فيهم روح ربّانه الشجاع بالينيوروس الذى غرق فى الرحلة إلى أسبريا . ويكلمه فيرجوه الربان أن يمد إليه يده فيجتاز به اليم إلى الشاطىء الآخر ، ولا يوشك إينياس أن يفعل لولا أن تنهاه سيبيل !! خشية أن يخرق شرائع بلوتو ، وتطمئنه فتخبره أن الأمواج ستقذف جثمان صاحبه إلى الشاطىء وسيدفنه الناس حين يرونه . ويتقدمان إلى خارون لبركيا فى زورقه ولكنه يغضب حين يرى إينياس ما يزال حياً بيدنه وعليه عدة حربه وعتاده ، ويسأله بأى حق جاز إلى هنا ، فتتولى سيبيل الاجابة وتخبره أنه لن يأتى محرماً فى الدار الآخرة ، وغرضه أن يرى أباه فحسب ويكلمه ثم يعود أدراجه ؛ وتريه الغصن الذهبى الذى احتمله بيمينه هدية لربة الموتى بروزرپين ، فيرضى ، ويبتسم . ويحملهما فى زورقه إلى العدوة الآخرة . وما يكادان يطآن الشاطىء حتى يفجأهما الكلب الخبيث سيربيروس ، ذو الرؤوس الثلاثة تقذف اللهب ، وعليها الأفاعى تنفث السم ، فيوشك يفتك بهما ، لولا أن تقذف له سيبيل كعكة بها مخدر عجيب فيلتهمها ويستلقى على رمال الشاطىء ، ويجوزان قليلاً فيسمعان أصوات أطفال صغار ماتوا قبل أن ينهلوا كوثر الحياة فأقاموا هنا ، وعلى مقربة منهم أرواح الذين ماتوا ضحية تهم باطلة وقد قام بينهم القاضى مينوس يفحص قضاياهم[1] ثم يمران بأرواح اليائسين من الحياة الذين ضاقوا بجدها ذرعاً فماتوا منتحرين . وهم الآن يتمنون لو عادوا إلى الدنيا فيعملوا من الصالحات ما يشفع لهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وينطلقان فيجوزان بدركات الأحزان التى ازينت طرقاتها بأزاهير الآس فيريان أرواح الذين ماتوا دون أن يقضوا مأربا من حبهم الذى خلعوه على عذارى الدنيا ، فباءوا هنا بألم لا ينجيهم منه حتى الموت نفسه : ويشهد إينياس بينهم روح حبيبته ديدو التى ما يزال جرحها دامياً ينفج ، ويكلمها ويحزن لها ، ثم يبكى بين يديها بكاء مرا[2] (و . . . حبيبتى ديدو ! ! لا تتهمينى بما أنت فيه من ضنى وتعذيب ! فقد سخرتنى الآلهة لأمر سماوى ؛ وكان لزاماً على أن أطيع ؛ فقفى وكلينى ، ولا تحرمينى حتى كلمة وداع هينة عليك ! وتقف ديدو بعينى حزينتين تفحصان جرات جهنم ، وتسير مسافة فيتبعها إينياس ، ولكنه يعود بعد إ لا يقوى على زفير السعير ! !) . ثم يعبران فيمران بأودية أرواح الشهداء ، ويحدق به أصحابه من محاربى طروادة مشدوهين ذاهلين ، يسألونه فيم أقبل ، وحين يلمحه أبطال الأغريق مقنعاً فى حديده مُقرّناً فى سلاحه تطير قلوبهم ويهربون منه فى أودية النار خوفاً وهلعاً ! وتستحثه سيبيل فيهرول وراءها حتى يكونا عند مفرق طريقين يؤدى أحدهما إلى الفردوس[1] (إليزيوم Elysium) والآخر إلى هاوية من هاويات جهنم حيث يقر المجرمون الذين لطخوا حياتهم بالآثام ، ويشهد إينياس على أحد جانبى الطريق مدينة منيفة عالية الذرى ، ذات سور ضخم وبرج مشيد ، تحيط بها أمواه فليجيتون — أحد أنهار جهنم — وقد وقفت ربة الانتقام المخيفة فى عليائها تحرس طبقات من المذنبين الذين راحوا يملأون الرحب بصراخهم وأنينهم . أولئك قد حسبوا ألا يقدر عليهم أحد فاجترحوا من السيئات ما شوهوا به وجه الحياة . . وهاهم ، قد وقفت على نواصيهم تيزيفون Tisiphone تحاسبهم وتظهر لهم ما أضمروا من الخبائث ، وكلما خلصت من حساب أحدهم قذفته لأخواتها ربات الدهر فتدق عنقه بمقامع من حديد وتشويه بشواظ من نار ونحاس !! وانفتحت بوابة المدينة فجأة ، فلمح إينياس هيدرا هائلة ذات خمسين رأساً تحرس الطريق عندها ؛ وهنا تخبره سيبيل أن هذه الطريق تؤدى إلى جحيم طرطاروس Tartarus ، وهى فى آخر السفل تبعد عنهما بعد السماء من فوقهما ، وفى قرارها يرسف التيتان الذين شقوا عصا الطاعة على جوپيتر كبير آلهة الأولمب . ورأى إينياس جماعات جلوساً حول موائد كثيرة وأمامهم آكال وأشربات كلما وضعوا منها شيئاً فى أفواههم نزعته منها ربة من ربات العذاب مكفهرة بهم . ورأى قوماً آخرين يحملون فوق هاماتهم حجارة ثقيلة تكاد تقصمهم . وعلم من سيبيل أن هؤلاء هم الذين كانوا يشاقون آباءهم ويضارون إخوتهم ويخادعون أصدقاءهم الذين وضعوا ثقتهم فيهم ويكنزون الذهب والفضة ولا يجعلون للفقراء نصيباً منهما . ورأى كذلك الذين فسخوا خطبة زواجهم بغير حق

(١) إلى هنا تكاد الأبيد تتفق والجحيم (من الكوميديا) فى فصولها الأوائل لا سيما فى وصف الدار الآخرة

(٢) أليس دانتى قد نقد هذه الصورة نفسها فى كوميدياه ؟

(١) هكذا جعل فرجيل جنته تحت الأرض . أما دانتى فقد هذبت المسيحية خياله فجعلها فى السماء وإن يكن لنباتاته قد جعل الشمس من أطيب منازل الجنة

والذين حاربوا وطنهم وخانوا أماناتهم وخرقوا الشرائع . ورأى أكسيون وسسفيوس يعذبان عذاباً أليما . ورأى تنتالوس واقفا فى بركة من الماء العذب ومع ذلك يوشك الظمأ أن يرديه كلما انحنى ليشرب هرب الماء وغاض فى الأرض ، ومن فوقه أشجار يانعة ذوات أثمار كلما مد يده ليقطف ثمرة ذهبت فروعها فى السماء فهو أبداً ظامئ جائع

* * *

وهنا ، ينتهيان من الجوس خلال الجحيم ، وتذكر له سيبيل أنهما سيبدآن رحلتهما إلى الفردوس (إلزيوم) ، فتخب به فى طريق دامس شديد الظلمة حتى تصل إلى أحراج نورانية فتكون هى الجنة التى وعد المتقون . وينشقان ثمة نسيما عليلاً [1] ويريان الصالحين مسربلين بسرابيل من أنوار أرجوانية ، وينظران إلى علٍ فيريان للجنة سماء لها نجومها وشمسها وأقمارها غير ما ترى فى سماء هذه الدنيا . وهناك ، أخذ الفائزون يمرحون ويلعبون ، فبعضهم يضطجع على العشب الأخضر يسامر أصدقاءه ، والبعض يلعب ألعاب الحياة الدنيا من مصارعة وجرى ورماية ، وآخرون يرقصون ويتغنون الأغانى . وفى هؤلاء أقام أرفيوس الموسيقى يشنف آذان أهل الجنة بقيثارته . ثم رأى إينياس فى أولئك الأبرار مؤسسى طروادة وأبطالها الأطهار الذين حاربوا الهيلانيين وعليهم حلل الاستبرق والغار ، ومعهم أرواح كثيرة مطهرة من القديسين والشهداء والشعراء الذين نظموا قصائدهم فى تمجيد أبوللو . وآخرين زانوا الحياة الدنيا بعلومهم وفنونهم [2] وقدموا يداً بيضاء لأخوانهم فى الانسانية . وكان هؤلاء يلبسون طيلسانات بيضاً وقراطق من حرير ، وقد سألتهم سيبيل إذا كان أنخيسيز (والد اينياس) بينهم ، فأذنوا لها أن تبحث عنه بين جموعهم الزاخرة ؛ ثم لقيته فى واد نضير ذى فواكه وأثمار فعرفه ابنه ، ومد الوالد ذراعيه يعانق ولده والدمع ينهمر على خديه ويروى لحبيته : « وأخيراً أتيت يا إينياس ! ياولدى ! كم حنت روحى إليك وكنت فى خشية عليك مما أعرف من حياتك التى تلطخها دماء الحروب ويغطشها قتار المعامع ! » فيجيبه ابنه « أبتاه ! ليفرخ روعك فان صورتك كانت أبداً ماثلة نصب عينى فكانت تقودنى الى الخيرات وترشدنى الى الصالحات ! » ثم يحاول أن يعانق أباه ، ولكن ... إنه لم يعانق إلا شبحاً ! !

ونظر إينياس فرأى وادياً مخضلاً سامق الشجر بليل النسيم يجرى من تحته نهر ليث العظيم ، وفى جنباته أمم شتى من أرواح الصالحين كثرت كثرة هائلة حتى لكأنها أسراب النحل فى إبان الربيع . ويسأل صاحبته عن هؤلاء فتقول سيبيل : « أولئك أرواح المؤمنين تنتظر يوم البعث فتعود إلى أجسادها فتلبسها [1] وهى تشرب النسيان من ليث ليشغلها عن توافه الحياة الدنيا ! »

ويسأل أباه إينياس فيقول : « أبى ألا تكون الحياة الدنيا محببة عند أحد من هؤلاء فيؤثرها على ما هو فيه الآن من طيبات فهو يود لو يعود إليها ؟ » وهنا يأخذ الأب فى شرح طويل عن بدء الخلق وعن العناصر التى صنع الله منها العالم (النار والهواء والأرض والماء) وأن هذه باتحادها ينشأ عنها اللهب الذى صنع الله منه الأرواح العلوية وقد انتثرت بذرة من اللهب المقدس فاختلطت بالأرض فصنع منها الآلهة السفليون الانسان والحيوان وكلما كبر الانسان قلت فيه بذرة اللهب المقدس وصغرت وخبثت نفسه لأن كمية الطين تزداد فيه ولذا تجد الأطفال لصغرهم ولقلة كمية الطين فيهم أكثر طهراً وأجم نقاء من الكبار . ولا بد للعبد المؤمن قبل دخول الجنة من إزالة الطين الذى اندس فيه وذلك بترويحه فى الهواء ، أو غسله فى الماء أو تحريقه بالنار ليخلص من الشوائب والدنايا وليستحق أن يكون من أهل ألزيوم . أما الصالحون فيرتدون إلى الحياة متقمصين أجساد القطط والذئاب والكلاب والسعالى والقرود فتزداد بهم الدنيا قبحاً على قبح . وقد يعود بعض الصالحين كذلك ليطهروا الدنيا من دنايا هؤلاء

ثم يحدث أنخيسيز ابنه عما ينتظر أن يتم على يديه من تكوين مملكة عظيمة فى إسبريا وعن جلائل الأعمال التى ستتم فيها على يديه وأيدى ذراريه . ويحدثه كذلك عن الحروب التى سيخوضون غمارها والمعارك التى سينتصرون فيها والزوجة الجميلة التى سيفوز بها ، وطروادة [2] الجديدة التى سيشيدون دعائمها فلا يمضى طويل حتى تكون سيدة العالم

ثم يسلم الولد على والده ، وتعود به سيبيل من طريق مختصر إلى هذه الحياة الدنيا

(للبحث بقية)

د . غ

(١) حتى هذه استعملها دانتى حينما خرج من الجحيم الى المطهر

(٢) هكذا ينصف قرجيل العلماء والفنانين !! فيالهذه من جنة إذن ؟

(١) لعل هذا الايمان ببعث الأجسام لفاح أصاب رومة عن طريق مصر

(٢) هى رومة بالطبع